قراءة في رواية
مملكة البلعوطي لنجيب الكيلاني

عمر محمد الملحم - السعودية

في الثلث الأول من القرن العشرين يتثاءب الزمن سأما. في محافظة الغربية إحدى المحافظات المصرية. وتحديدا في عدد من قرى مركز زفتى. ويتمطى الفقر والاستغلال على المنطقة. وبعض الإقطاعيين تمتد أيديهم برعونة لتنهب الفلاحين وتسومهم سوء العذاب وذل الهوان.

في وسط هذه الظلمة يظهر إبراهيم عبد اللطيف الفلاح والتاجر الصغير - الذي لم يتلق أي تعليم يذكر - في سوق سنباط التجاري متحديا المتسلط أبا العز ورجاله ومن يساندهم، معتمدا على قوته الشخصية، ومساندة أخيه علي الذي يقف دائما إلى جانبه إلى أن يموت مع من مات في وباء الكوليرا الذي أصاب البلد.

ويضرب إبراهيم بعصاه فيهزمهم شر هزيمة. وبهذا ينتقل ابن شرشابة ليصبح بطلا شعبيا يسعى جاهدا لتحقيق شيء من العدالة للفلاحين، حتى أصبحت تتمثل في شخصيته آمال الناس وطموحاتهم، وخصوصا بعد نجاحه في قرية شرشابة في التصدي كذلك للإقطاعي الكبير الطاغية أبي العز سليم، بعد محاولات ومواجهات كان الفشل حليف أبي العز للتخلص من إبراهيم.

وفي النهاية يستسلم أبو العز ويطلب من إبراهيم عدو الأمس أن يتولى حراسة أرضه وخصوصا بعد مقتل أبرز رجاله محمد ابن بحراوية على يد عديلة زوجة المغربي أحد أصحاب ابن بحراوية دفاعا عن شرفها.

ثم ينتقل أبو العز إلى طنطا، ويتزوج ثانية ويستقر فيها. تاركا أملاكه تحت حراسة إبراهيم الذي يصبح الملك في المنطقة ويسميه الناس البلعوطي، ويسمون المنطقة التي تحت حمايته بمملكة البلعوطي.

لم يلجأ إبراهيم إلى العنف بعد حادثة السوق، فتم له فرض سياسته ونهجه الإسلامي بطرق سلمية، معتمدا على قوة شخصيته وحزمه وحكمته التي أعجب بها جميع رجال السلطة والوجهاء في المنطقة.

وبالفعل فقد شهد البلد خلال سلطته تحسنا في وضعه الاقتصادي انعكس على الأهالي ببحبوحة مادية جعلتهم يرسلون أولادهم إلى المدارس، ويهتمون بتحسين أوضاعهم المعيشية.

وبعد أن يزوج ولده كاملا من زوجته الأولى مسعدة من ابنة الشيخ عبد القادر الشاذلي، الشخصية الدينية الأولى في البلد، المعجبة جدا بشخصية إبراهيم التي تحكم بشرع الله. هذا الزواج الذي سوف يثمر عن ولدين، يرى الجد إبراهيم في الولد الأكبر خليفة له، ويزوج ابنه محمداً من زوجته الثانية مبروكة من ابنة أحد أصحابه، وينشر الأمن والسلم في قريته الفاضلة يصاب البلعوطي بمرض عضال توفي به في بيت زوجته البابلية الأخيرة والأثيرة لديه، يموت تاركا المملكة بلا خليفة. لتبكيه شرشابة والقرى المجاورة بكاء حارا.

شخصية البطل الإسلامي في رواية مملكة البلعوطي:

إبراهيم عبد اللطيف الملقب (بالبلعوطي) يتفق أول ظهور له على مسرح الأحداث إثر الاتفاق الهش الذي عقده الشيخ عبد القادر الشاذلي مع أبي العز، منتقدا هذا الاتفاق شاكا في مصداقية أبي العز، ونواياه.

لم نعرف إلا النزر اليسير عن طفولته وشبابه وذلك من خلال ما سوف يأتي عرضا من وصف الراوي له، ومن خلال لحظة مسامرة مع زوجته الأخيرة البابلية، التي تكاد تكون المرة الوحيدة التي يتحدث فيها إبراهيم عن نفسه. هكذا ظهر في سوق سنباط مفعما بالرجولة والقوة، والحكمة تقطر من بين فكيه. فمما يلاحظ على ظهوره في تلك السوق:

●● (إبراهيم عبد اللطيف لم يكن غنيا، ولكنه كان ذا هيبة وقوة، وكان يتمتع بقدر كبير من الذكاء والخبرة ويعرفه أكابر رجال المنطقة، ويجله العمدة.. كان العمدة والكبراء وكذلك مأمور المركز يستعينون به في كثير من المشاكل التي تحدث من آن لآخر).

نجيب الكيلاني

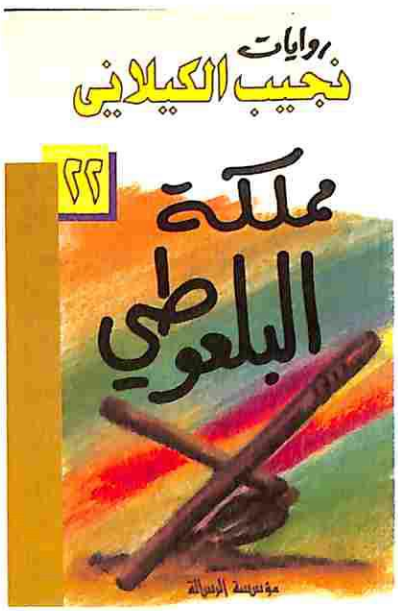

هذا جل ما نعرفه عن إبراهيم فلاحا على مستوى القرية وتاجرا على مستوى السوق، لم نعثر على حدث سابق يهيئه لحدث السوق الكبير. هكذا يظهر، فكأن العناية الإلهية قد أرسلته ليحقق العدالة و ليحارب كل المفاسد والمنكرات، وليضع الشريعة موضع التنفيذ. فقد تحرك بعد ما رأى أن أبا العز سليم ورجاله أساؤوا السيرة (وعاث في الأرض فسادا). هكذا يبرر ما فعله لتوفيق بك عمدة سنباط.

●● الأعداء: أبو العز ورجاله وحتى عسكر الإنكليز والخفر المصري، يظهرون أمام عصاه السحرية بلا حول ولا قوة، لقد فر كل واحد يبحث عن النجاة وكأنه أمام قوة لا تقاوم. فقد (سرت أنباء تقول: إن إبراهيم عبد اللطيف وأخاه قد ضربوا من في السوق، والتمسوا العسكر، وإن الإنكليز لاذوا بالفرار)، من قبيل التنبيه يقول السيد علي (العسكر مسلحون) بالبنادق، وكانت أوامر الاحتلال تعني قمع كل شكل من أشكال العنف مهما كانت نواياه، لأنهم كانوا يظنون دائما أنهم هم المستهدفون !

●● في السوق وفي يوم الاستعداد لعيد الأضحى حيث اجتمع عدد كبير من الناس، هذان شكلا المكان والزمان المناسب لمغامرة إبراهيم ليفرض نفسه بطلا تعاد صياغته مع كل راوية شاهد

الحدث في السوق في قرى المنطقة وكفورها.

إن الراوي الشعبي يتصدر ليصبح هو بطل الرواية حين يتراجع البطل الواقعي، أو يجيء أحيانا ليكمل ما بدأه. كلاهما ترجمة ؛ البطل الواقعي وفق منطق الأحداث وقوانينها، والشعبي يطيح بهذه المنطقية ساخرا منها ليطرح نفسه المهشمة أو الغائبة بآلامها ومشاريعها وأحلامها المجهضة. لذلك قيل: (إن إبراهيم

ربط اثنين من العسكر الإنجليزي في السور الحديدي للسوق وأشبعهم ضربا بالسياط، ونزع عنهم سلاحهم، وقيل أيضا: إنه أمسك بأحد الأتراك الجباة وقيده بالحبال وجرده من الأموال التي كانت معه، بل زعموا: إنه أمسك بشيخ الخفراء لدى أبو العز سليم وصلبه على شجرة، ودعا الناس ليسخروا منه ويعفروه بالتراب).

على المستوى الواقعي لم يحدث شيء، ولكن الجمهور (الشعب) يبحث دائما عن بطله، الذي يصبح قريبا منه إلى درجة أنه قد يحقق له ما عجز عن تحقيقه في كل شؤون حياته الكبيرة والصغيرة ! هؤلاء الثلاثة الإنكليز والأتراك والخفراء صور للقمع في جنسيات مختلفة، جميعا تركوا جراحا غائرة في جسد الشعب، فعندما ظهر البلعوطي نكأت تلك الجراح لتخرج إبراهيم من زيه المحلي وأهدافه الصغيرة لتلبسه زيا وطنيا تبنى عليه الآمال العريضة (أصبحت حياة البلوطي رمزا لآمالهم، ومرتبطة بحياتهم، أصبح مثل الماء والهواء لا يمكن الاستغناء عنه). وهكذا أصبح إبراهيم عبد اللطيف الفلاح والتاجر الصغير عشية عيد الأضحى بطلا شعبيا.

إبراهيم من جانبه يبدو متواضعا إلى أبعد الحدود ويتأبى عن هذا الزي الفضفاض فيؤكد أن (ماحدث ليس عملا خارقا، أو بطولة نادرة، كل ما في الأمر أن ما حدث مجرد استجابة طبيعية لإثارة ظالمة من قوم لا يوقرون الإنسان، ولا يحترمون حقوقه، ويظنون أنهم فوق البشر، وأن لهم الحق - كل الحق - في أن يفعلوا ما شاؤوا دون حساب أو رقيب).

قبل البدء بتحليل هذا الرد العالي الذي يشتمل على رؤية الكاتب، لا رؤية بطله، لأن هناك سؤالا يطرح نفسه بإلحاح: الظلمة منذ زمن وهم يمارسون إثاراتهم الظالمة حتى غالوا في ذلك، فلماذا لم يبادر إبراهيم إلى التصدي لهم؟ سيبقى هذا السؤال معلقا لأن الرواية سكتت عن الإجابة.

ينطوي الرد كما أسلفنا على رؤية الكاتب التي تتمثل في:

أولا - رفض الظلم بكافة صوره ووسائله، لأنه يتنافى مع الفطرة الإنسانية، والضرب على أيدي الظلمة وخصوصا عندما يلجون في غيهم. ويكون هذا الرد مشروعا لأنه يتفق مع الفطرة التي جبلت على كره الظلم ومحاربته.

ثانيا - احترام الشخصية الإنسانية على مختلف درجات السلم الاجتماعي، وضمان حقوقها، وتوقيرها. فلابد من وجود هيئة أو جهاز لضمان ذلك. وللوقوف في وجه من يريد أن يعبث في هذه الشخصية.

ثالثا - محاربة الطبقية القمعية التي تستند على خلفية إقطاعية أو غيرها، لأن الناس سواسية وليس لأحد الحق في السيطرة على أحد. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف لابد من القوة والسلاح الذي يمتلكه إبراهيم وهو حب الناس (سلاحه حب الناس وطاعتهم، والتهديد بالسلاح ضرورة كوسيلة تأديب أو إنذار أكثر من كونه أداة للقتل). وبما أن سلاحه حب الناس فهو لا ينظر إليهم كأتباع بل هو جزء منهم، وفي الأزمات يلتفون حوله بلا تنظيم ولا تدريب فلهم (القدرة على التنظيم التلقائي عند الأزمة) هذه العلاقة الأبوية بينه وبين الناس كان من نتاجها أنهم (هم الذين يصدرون الأوامر.... إنني أتعلم منهم وأستلهم آمالهم وأحلامهم). إن ثقته الكبيرة بالناس هي نتاج تعامله مع العالم المحيط به تعاملا فطريا، وكأنه يهتدي بقوة غيبية؟ هذه الثقة لم تتعرض طوال الرواية للامتحان. وربما يعود ذلك إلى أن المواقف التي صادفت إبراهيم لم تشكل مواقف امتحانية للناس. وبالتالي امتحان يعود لهذه الطروحات.

أليس في تغيب إبراهيم طوال تلك السنوات من عمره ثم ظهوره المفاجئ إحالة إسلامية، ثم نجاحه الكبير والسريع في مهمته. واهتداؤه في سياسته بقوة غيبية. أيكون نموذجا للإمام الذي تمخضت عنه مخيلة نجيب الكيلاني الذي سيعيد التوازن للأرض، بعدما ملئت جورا !؟

إبراهيم بطل إسلامي في الإطار والتكوين. ولكنه نموذج غير مرتد في سياسته إلى أمثولة راشدية، بل إلى نموذج متأخر فيه من الفردية أكثر مما فيه من الشورى. رغم أن الكاتب أحاطه بمجموعة كانوا يمكن أن يشكلوا جماعة شورى كأخيه علي والشيخ عبد القادر، وابنه كامل. فالقرارات الكبرى كان يتفرد بها، كصفحه عن المغربي الذي حاول اغتيال ابنه كامل. وحضور اجتماع المصالحة الذي عقده توفيق بك. حتى قرار زواج ابنه كامل من ابنة الشيخ عبد القادر.

لكن هذه الفردية لا تنفي عن إبراهيم نجاحه في أن يصبح بطلا شعبيا، يتبنى أهداف الناس ويستلهم آمالهم ويسعى بشكل جدي لتحقيق مصالحهم ورعايتها. (أنا لست عمدة ولا حاكما على ولاية... ولكن بقدراتي الذاتية وسمعتي وعقلي فوق الحكام والعمد. الناس يطلقون على هذه المنطقة كلها مملكة البلعوطي.. أنا هناك..وأنا هنا كما أنا لي وجودي في كل قرية وكفر في هذه المنطقة).

لعل هذه المكاشفة التي انفلت عنها صدر إبراهيم في لحظة تهديد لولده محمد من المكاشفات الصريحة النادرة في الرواية، أليس فيها من الغلو الذاتي الشيء الكثير؟ هذا الغلو الذي يذكرنا بالحاكم الشرقي الذي يرى أن كل الأمور تعود إليه وتصدر عنه، والذي يرى أن ماحققه هو جهد ذاتي محض وليس لأحد عليه منة فيه إلا الله تعالى. والذي يتضخم ليجعل لنفسه حضورا متجاوزا حدوده المادية وموضوعية القيادة التي تعترف بالآخر. (أنا هناك، وأنا هنا كما أن لي وجودا في كل قرية وكفر !) بصيغة الأنا التي لا تقبل الشراكة ولا المشاورة ولا الاعتراف بالمساعدة، تحيل إبراهيم إلى بطل إسلامي؟. فأقرب الناس إليه السيد علي أخوه كانت تتوقف حدود شخصيته عند المساعدة في التنفيذ، أو كطرف يمكن أن يناقش معه إبراهيم المشكلة، إنها شورى مزاجية، لقد سلب إبراهيم الشخصية الحكيمة، والتي كانت كأنها تستقي قراراتها وأحكامها من قوى علوية أليس هو (مبعوث العناية الإلهية) كما يظن الناس. فالقرار يأتي فجأة ثم يصبح واقعا وكل الشخصيات والأحداث تجير لصالحه، حتى يكون التنفيذ ناجحا والنتائج في صالح سياسة إبراهيم، وإعلاء شخصه.

إن إبراهيم بطل شعبي، ولعل إصراره على مواقفه والدفاع عنها بقوة ووضوح وبلا تكلف جزء من تكوينه الفلاحي، الذي يجعله يتعامل مع الأحداث بصدق ودون استعداد

مسبق. هو يحدس فقط، وقلما يخطئ حدسه. وعلى طول الأحداث هناك مساعدون غير مرئيين على مسرح الأحداث، فأصحاب العصابات المتمردة الذين قلمت أظفارهم (كانوا يقولون: له في كل خربة عفريت).

إن نهاية إبراهيم مهد لها الكاتب كحدث عظيم، فعلى الصعيد الوطني يموت سعد زغلول الذي يكاد يكون المعادل الوطني لإبراهيم الذي قال لريحانة (أنا أبوكم وأخوكم...) وسعد الذي (خرجت الجموع باكية حزينة تشيعه إلى مثواه الأخير، كان كرب أسرة عظيم، تركها دون أن تنمو النمو الكافي، ولذلك شعر الناس بما يشبه اليتم) لابد من ملاحظة النظرة الواحدة من الشعب للقائدين اللذين أخذا قبل النضوج. وإبراهيم الذي سوف يترك المملكة بلا خلفية يحكمها فكأنه يترك الشعب يتيما.

والتمهيد الثاني مرض إبراهيم المفاجئ وبحثه عن العلاج في الوصفات الشعبية التي كانت تحضرها له البابلية، ثم وصفات الأطباء الذين وقفوا عاجزين حيال مرضه الخبيث. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا اختار الكيلاني لبطله هذه المحنة المؤلمة قبل موته؟ لعل الإحالة الإسلامية تغني عن المزيد من التعليلات، فمن المعروف أن المرض شكل من أشكال التطهير من الذنوب والآثام للعبد المسلم، والكاتب حريص أن يتطهر بطله المعجب به قبل رحلته الأخيرة.

وبعد اشتداد المرض وعجز وصفات البابلية كانت رحلته الأخيرة إلى القاهرة (ليعرض نفسه على طبيب كبير متخصص في الأمراض الباطنية) التي كنى عنها بزيارة ابنه عبد الفتاح في طنطا، وهناك صلى في أكبر مساجدها، ومشى ساعة على شاطئ النيل (مأخوذا بجماله) وفي طريق العودة عرج على أقربائه وبعض أصدقائه وزارهم جميعا. لقد

(كانت رحلة مودع) كما أجاب على تعجب الشيخ عبد القادر الذي رأى عليه (غبار السفر).

ولعل الحلم الذي حكاه إبراهيم للبابلية قبل سفره (رأيت فيما يرى النائم أن أبي عثمان وجدي أحمد قدما لزيارتي، وفي نهاية الزيارة قالوا لي: قم معنا يا إبراهيم. قلت لهم: إنكم تأتون لزيارتي كل عام، ثم ترحلون وتتركوني فأصروا أن أصحبهم هذه المرة) أمارة غيبية واضحة ممهدة لوفاته، وهذا بالضبط ما استشعره وهو يحكي حلمه.

ويقضي إبراهيم بعد عودته من زيارته عدة أيام طريح الفراش وينتشر خبر مرضه، ثم ينطلق (الصراخ والصياح من بيت إبراهيم عبد اللطيف، وتوافد أهل القرية من كل صوب، ووقف كامل أمام البيت مذهولا...).

إن مناقشة موت إبراهيم تفتح المجال لقراءة الجدوى من هذا العمل، أكان موت إبراهيم مسألة مرضية أم كانت نهاية فنية درامية لبطل عظيم؟ وأيا كان الجواب، فهذا يعني أن ما شاده إبراهيم يوازي الداء الذي كان يتسرطن في داخله؟ بمعنى آخر: في نهاية الرواية الكاتب مارس اغتيالا ثنائيا، قاصدا الدهشة من الأول، ومجاراة التجربة الإسلامية المجهضة باستمرار في الثاني. أما الاغتيال الأول فهو هذا الموت المبكر والمفاجئ لإبراهيم. والثاني اغتيال الخليفة، فقد ترك المملكة بدون خليفة فعلي أو منظور، وهذا يعني أن إبراهيم مثله مثل أي عبقرية إسلامية استطاعت وبجهود شخصية أن تحقق العدالة، وبالتالي تشهد الدولة ازدهارا طوال حياته، ولكن إلى من سوف تؤول الخلافة بعده؟ هذا ما سكت عنه الكاتب عامدا!

وفي هذا إجهاض للمشروع الإصلاحي الذي بدأه إبراهيم. وقد ينقلب الخليفة القادم على هذا المشروع. إبراهيم الشخصية الشهاب الذي يضيء الكون للحظات، وما إن يسقط حتى يغمر الظلام الكون من جديد؟! ■